العرب
الخميس 2020/01/30
السنة 42 العدد 11602

نقد روائي لاذع لـ«الربيع العربي»

«الضريح» رواية مغربية في نقد خطاب التطرف والكراهية

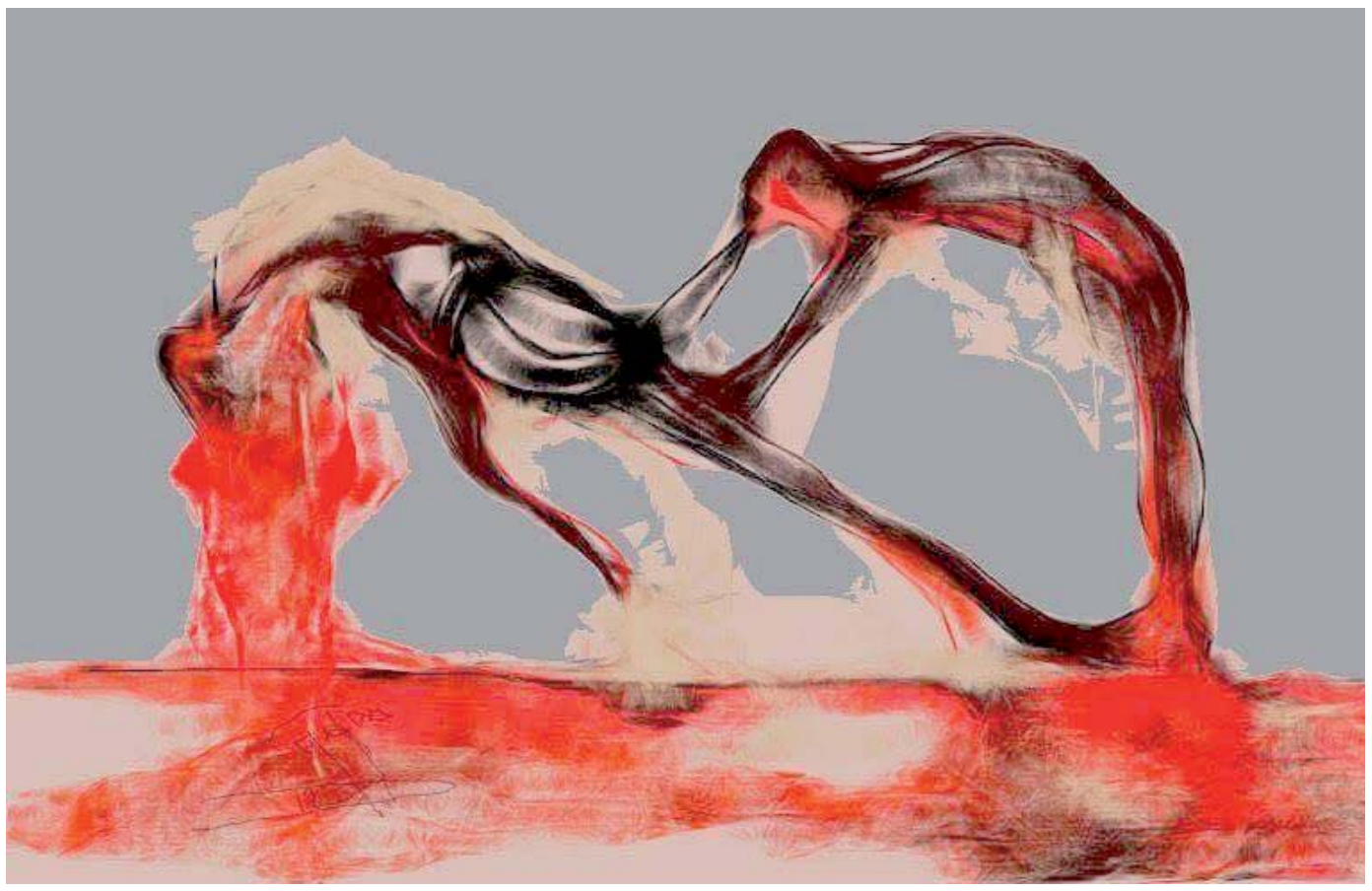

التمرد ونهاية عنيفة (لوحة للفنان معتوق بوراوي)

حين قرر جورج أورويل كتابة رواية لنقد النظام الشيوعي كتب رائعته "مزرعة الحيوان"، فكانت نقدا لاذعا للثورة الشيوعية من نبل بداياتها إلى انحرافها بعد نجاحها، وكان النهج الرمزي مهما جدا في تفكيك الأحداث الكبرى، وهذا ما انتهجه الكاتب المغربي محمد الشمسي في روايته الجديدة "الضريح".

محمد ماموني العلوي
صحافي مغربي

رواية "الضريح" المنشورة في طبعتها الأولى مطلع 2020، هي باكورة أعمال الكاتب المغربي محمد الشمسي، وتعالج الرواية ظاهرة التطرف من خلال شخصية الشيخ الحيسن وصحبه الذين اقتحموا أحد الدواوير وشرعوا في نشر خطاب الكراهية والتكفير داخل "خيمة الله"، في محاولة منهم لاستدراج الشباب وتحويلهم إلى مقاتلين تحت مبرر الجهاد وتغيير المنكر والنصرة ونشر الإسلام والانتقام لدين الله، ليتبين في الأخير أنهم مجرد مأجورين لتجنيد اليافعين المغفلين وتدجينهم مقابل أموال يتسلمونها من زعيمهم "الكبير".

> هدف المشروع إعادة صوغ المجال العام الذي يتشارك فيه الجمهور المتعطش للجمال والمشاركة في تحقيقه

ويمكن اعتبار الرواية تشريحا اجتماعيا ونفسيا وثقافيا للواقع المغربي، وعنوان الرواية الذي هو "الضريح"، لم يكن اختيارا، كما يقول محمد الشمسي، بل إنه فرض نفسه حيث هو الذي فتح الباب لكتابة الرواية برمتها. والضريح في الرواية بريء من طقوس الدجل والشعوذة والوثنية، كما يؤكد الشمسي، لـ"العرب"، ومن خلال قراءة الرواية يمكن للقارئ إسقاط دلالات الضريح.

حكاية رمزية

انتقال محمد الشمسي بين أعماله القصصية والمسرح ووصوله إلى الرواية، جاء بتسلسل زمني وعبر منعطفات التجربة والخبرة والمعيش اليومي، وعليه يوضح الكاتب لـ"العرب"، أنه كانت له محاولات في القصة القصيرة، ثم كتب مسرحيات ذات طابع سياسي ساخر، ثم نظم مشروع ديوان شعري لا يزال حبيس أوراقه ينتظر فرصته للطبع والصدور، لكن الرواية رحلة أخرى وبنفس آخر، الرواية في رأيه "أدغال أكثر كثافة وسمكا وشساعة، وهي تمنح من خلال تضاريسها الصعبة تلك متعة لمن يتوغل فيها، وأنا قررت خوض تلك الرحلة بآلامها وعذاباتها، وهي آلام استطبتها واستحسنتها".

وأما عن ارتمائه في أحضان الرواية كجنس أدبي، يقول محمد الشمسي، لـ"العرب"، إن القرار لم يكن باختياره، فقد وجد نفسه مدفوعا إلى كتابة الرواية دفعا، مضيفا "يمكن أن أقول إن رواية الضريح، هي التي كتبتني ولست أنا من كتبها، وأنا كنت مجرد وسيلة كتابة".

وتجري أحداث رواية الضريح في دوار بالمغرب المنسي والقصي، بعد أن تمرد عدد من سكان الدوار على حكم "شيخ الجْماعة" مطالبينه بالمحاسبة عن سنوات تدبيره لشأن "الجْماعة"، وعن تورطه في علاقات مشبوهة مع سكان "دوار أولاد الشر" الذين اغتصبوا أرضهم المسماة "الكُدس" بينما تفرق بينهم أحقاد وثأر وقصاص ودماء.

ويؤكد محمد الشمسي لـ"العرب، أنه يمكن للقارئ فك شفرة "الضريح"، وشخصياتها ورمزيتها، فالرواية تتجاوز القصة التي ترويها، ودلالات الرواية مرتبطة بثورات الربيع العربي، وكيف قامت تلك الثورات، وماذا كان مصيرها، وهل نجحت أم فشلت؟

وبخصوص الحدود بين الواقع والخيال في الرواية، يشير الكاتب إلى أن "الضريح"، واقع دون زمان ولا مكان، هي واقع أكيد لكن من غير تشخيص مباشر، ويصدقُ وصفه بـ"الهم الروائي"، فالكاتب هو إنسان مهموم وقلق ومرتاب، إنه مثل آلة استشعار الهزات الأرضية، إبرته تتحرك عند كل هزة ولو خفيفة.

العنف والثورة

ثيمة التطرف كانت الموضوع الأساسي الذي شكل مرتكزا لمتن رواية "الضريح"، هذا الموضوع كان الشق الثاني للرواية يقول الكاتب محمد الشمسي، بعد حدث إعلان الشعب عن الثورة، حيث تمرد أعضاء من "الجْماعة"، ضد الحاكم (شيخ الجْماعة)، لمحاسبته، وتبيان سر تورطه في علاقات مشبوهة مع أعداء الدوار (أعداء الأمة) الذين اغتصبوا أرض "الكدس".

ونجد من بين شخصيات العمل شخصية رشيد، الذي تصوره الرواية باعتباره المعلم الوحيد في مدرسة الدوار وهو المتسلح بالمعرفة وقوة الحجة، ومتانة المحاججة، ليفشل مخطط الإرهابيين من جهة، بعد خوضه لمناظرات علمية مع أصوات التطرف، كشف خلالها زيف منهجهم، وضعف وسيلتهم، ومن جهة ثانية أنار المعلم رشيد طريق الثوار الخارجين على نهج "شيخ الجماعة"، عن طريق دفعهم نحو تقديم البديل بعد خلع "الشيخ التهامي" خشية الفوضى والفراغ.

والمعلم رشيد الذي يحضر لدكتوراه الدولة في التاريخ، يجد نفسه وسط تلك الثورة، فيقدم البديل للثوار ويتمثل البديل في وجوب أن تستند الثورة على العلم والمعرفة والمقترح والبديل، درءا لكل فوضى أو فتنة يخلقها الفراغ إثر خلع الحاكم، وكان البديل هو إنشاء "جمعية النور" بقانونها الأساسي وجمعها العام وانتخاباتها وهياكلها، لتحل محل ناموس "الجْماعة" التقليدي والبائد والمتحجر، خاصة بعد أن تواطأ "مجلس الرمي" (هيئة الأمم المتحدة) مع "شيخ الجْماعة" المغضوب عليه، بضغط من القايد (القوى العظمى).

ويأتي التطرف ملتصقا بالثورة، في المتن الروائي الجديد للكاتب محمد الشمسي، حيث يظهر الحيسن (اسم تصغير لحسن)، ليفتي ويحرض، وينبري المعلم رشيد لأباطيل الشيخ المتطرف، ويناظره في مناظرة قوامها قوة المحاججة القائمة على المعرفة والبحث العلمي من معلم هو مشروع دكتور في التاريخ.

ويكون موضوع المناظرة بين المعلم رشيد والمتطرفين هو افتقاد الكتب المسماة الصحيحة للمنهج العملي السليم، واعتمادها على مناهج غير علمية في تحقيق الأحاديث، مما يجعل منها مجرد أنشطة بشرية تفتقد للوجاهة والقوة، وأمام فشل المتطرفين في الرد على قوة البينة والبرهان، يحكمون بحرق الضريح وحرق المدرسة وقتل المعلم... وذلك ما كان.

جويس وبروست وفوكنر رموز القراءة الصعبة

وارد بدر السالم
روائي عراقي

خبرة القراءة المتمرسة ليست عابرة أو سهلة. بل توازي خبرة الكتابة من ناحيتها النظرية في الأقل. فحسب نظريات القراءة وموجّهاتها الفنية فإنّ ثمة قارئا متمرسا ومحترفا. وهو المؤلف الضمني الذي يحاذي نص المؤلف ويكتشف ما وراءه بالمعنى النقدي. وربما يقتضي الأمر أن يكون مثل ذلك القارئ مؤلفا من نوع متقدم والإشارات النقدية المنهجية تبيح لمثل هذا القارئ أن يكون بمستوى المؤلف. وبالتالي هو مؤلف فاعل في النص المقروء.لأن عملية القراءة والكتابة متضامنة إلى حد كبير بين الكاتب وقارئه. ولولا القارئ فإنه لا يوجد كاتب وقد لا يوجد نص.

قد تسوقنا أمثلة معاكسة إلى صعوبات في تلقي القراءة. حتى المحترف فيها يجد عسرا في تقبله لهذه الرواية أو تلك. بمعنى أن تكون القراءة -قطعا- غير مواتية تماما للتلقي البسيط. وشواهد القراءة الصعبة كثيرة ومملة في الكثير من الأحيان. وهذا لا يعني عدم وجود قارئ. بل المقصود أن هناك نصا غائبا أثناء القراءة مع أصل النص. ومعنا ثلاثي عالمي قد نتفق على صعوبة في قراءاتهم سرديا. فالأيرلندي جيمس جويس بملحمته "يوليسيس" التي تعد واحدة من أكثر السرديات العالمية صعوبة وتعقيدا ومللا في القراءة. والكثير من الأدباء المتخصصين في الفن الروائي كتّابا ونقادا يعانون من فهمها أو التواصل معها. في حين يصفها آخرون بأنها رواية الزمن العجائبية وأنها سِفْر الحكمة. كما أن أيرلندا تحتفل سنويا باستذكار هذه الملحمة الأسطورية وإن فقدت مع الزمن نشوة القراءة عند الكثيرين من مختلف الأجيال في العالم ومع ترجمات عالمية كثيرة ومتعددة.

الأمر ذاته حدث مع روايته المعروفة "صورة الفنان في شبابه" التي اعتذر عن نشرها رئيس تحرير مجلة "دانا" بذريعة أنه لا يستطيع نشر ما لا يفهم. وهذا حكم نقدي صارم قبل أن يكون ذوقيا، مع أن هذه الرواية التي وظف فيها جويس الكثير من سيرته الذاتية كانت تتمحور حول شخصيته وتحولاتها الفكرية والدينية؛ فإنها واجهت عسرا في القراءة لتعقيد شكلها ولغتها وأحداثها وما تركته من ملل في القراءة العامة.

وهذا يعيد إلينا ما قاله جويس ذات مرة لصديق له "إذا واجهتك صعوبة في قراءة ما أكتبه؛ فذلك يعود إلى المادة التي أستنبط منها المعلومات، فدائما ما تبدو هذه الأفكار بسيطة بالنسبة إلي"، وهنا مركزية أفكار جويس الفنية في استنباط معلوماته الدقيقة في هذه الرواية أو رواية "يوليسيس" أو "سهرة فينيغان" حيث لم ترد قبل مئة عام فكرة المعلومات العامة التي تجتمع في روايات ما قبل الحداثة؛ الموسيقى، الغناء، الأسطورة، الفن، التاريخ، الوعظ، الفلسفة، فالسرد المعلوماتي حديث بالقياس إلى فترة جيمس جويس التأسيسية.

والرواية المعلوماتية، التي تستعين بالمعلومات الثقافية والمعارف العامة، مفهوم نقدي حديث يرى أن النص السردي يمكن له أن يستعين بنصوص جمالية أخرى لتوطيد صلته بجميع الفنون الأدبية والجمالية. فهل سبق جويس عصره بعشرة قرون مثلا في تأسيس هذا المفهوم يوم لم يكن النقد الجمالي فاعلا كثيرا وغير مهتم بالمصطلحات والمفاهيم النقدية التي تتابع الإبداع الروائي؟

سيبدو هذا التساؤل غير ذكي بما يكفي لو نظرنا إلى مفاهيم النقد الحديثة ونحن نتطور مع القراءة الفنية. إذ بقيت يوليسيس عصيّة على الفهم والتفاعل والتواصل منذ ذلك الزمن حتى اليوم. وتحتاج إلى صبر استثنائي لهضمها. فهل الترجمة هي السبب؟

قد تكون الترجمة أحد الأسباب لاسيما وروايات جويس صعبة الفهم والتعقيد ومتداخلة في بنائها الإطاري إلى حد كبير. وتحتاج إلى معالجات أسلوبية استثنائية للوصول إلى الجملة الأيرلندية وصورتها الحقيقية بل إلى صوتها الداخلي الذي استعمله جويس وهو يؤسس مدينة سردية توازي العاصمة دبلن. غير أن هذا لا يكفي أمام رواية صامدة لعشرة قرون أخذت الكثير من جهود الباحثين والأكاديميين.

> النص المصاحب للأعمال الفنية المعاصرة ليس مجرد خطاب شارح، بل يشكل متنا جوهريا في عملية العرض

وإذا كان جويس مثالا على صعوبة التلقي القرائي فإن مارسيل بروست في "البحث عن الزمن الضائع" لا يقل عنه صعوبة وغموضا وتعقيدا، مع أن غراهام غرين وصفه بأعظم مؤلف في القرن العشرين. وفي سيرة هذه الرواية الكبيرة نجد أنها أطول رواية في العالم إذ بلغت مليونا ونصف المليون كلمة، وأن عدد شخصياتها يناهز الـ2000 شخصية وأنها حدث استثنائي سردي عالمي. ومغايرة في أسلوبها السردي الذي يتسم بالتعقّيد الذي تقصّده بروست، باعتبار أن مثل هذا التعقيد هو الذي يصنع الجمال لا البساطة المتفق عليها ذوقيا ونقديا. وفي هذا التحدي الفني قامت أجزاؤها السبعة على حبكة غير سهلة وهي تناقش الزمن ومفاصله الكونية عبر قرنين من دون إحداث ثغرة في المستقبل كزمن سيأتي، لكن بالبحث عن الزمن المفقود عبر استعادته والتنويع فيه.

وفي كلاسيكيات السرد الأميركي تقف رواية "الصخب والعنف" لوليم فوكنر في مقدمة الروايات الصعبة قراءة وتعقيدا أسلوبيا مما لا يستطيع القارئ العادي وحتى المتماهي مع القراءة من استيعاب صدمات هذا الأثر الجمالي، فهي عصية على الفهم وغير تقليدية في سلوكها الروائي المتشابك وفي لغتها وشخصياتها وتعدد مستويات الوعي فيها، وهو ما أشار إليه الكثير من النقاد. لكن القارئ الضمني؛ وهو المحايث للنص؛ والمؤلف الضمني الآخر؛ عندما يجد صعوبات في قراءة مثل هذه السرديات الكبرى، سيجد نفسه ضائعا في أدغال السطور والصفحات والأحداث والمعلومات والتشكيلات الفنية.. فأين يكمن الخلل؟

هل هو في استيعاب القارئ؟ أم في الترجمة؟ أم في الكتابة أصلا؟

جيمس جويس من الصعب فهمه

شاعر لبناني هاجسه المشي ولا يكترث بالوصول

ميلانو (إيطاليا) – يستهل الشاعر اللبناني شربل داغر مجموعته الشعرية الجديدة "عشها مثل أبد لا ينقضي" بفقرة للخليل بن أحمد الفراهيدي عن الشعراء، جاء في مطلعها "الشعراء أمراء الكلام، يصرفونه أنّى شاؤوا".

ومن خلال هذه الجملة يكون الشاعر شربل داغر، الذي كتب دراسات حول الشعر العربي الحديث، وقصيدة النثر؛ قد مهد لخوض تجربة جديدة، أكثر تمردا ربما، وهو يواصل مشروعه الشعري، متقدما من دون أن يلتفت إلى الخلف، هو الذي يسمي الأشياء، فتتبعه الأشياء، وهو الذي يمسك اللحظة الواحدة، إذ يضعها على طرف لسانه تتمدد وتتسع وتحول دون غيابه، هو المقامر المغامر الذي لا بوصلة له، ولا منفذ نجاة.

وهنا نقرأ "للجندي قطعة معدنية، فيها رقمه، وأنا ما أفعل، وليس لي مثلها، فيما لا أتوانى عن الوقوع يوما تلو يوم،/ ولا أجد من يدلني على منفذ نجاة؟".

هاجس الشاعر، هو المشي، البقاء على قيد الخطى، "لا أزال أجد في السير،/ وأرقص فيما أظنني أمشي". بل هناك في الكتاب قصيدة بعنوان "لن أتوقف عن المشي" وأخرى "كانت، بينما كنت أمشي"، ولا يهم بعد ذلك هل من وصول، بالنسبة إلى الشاعر لأن في المشي حياة، وفي الحياة خفة، تجعل الشاعر شاعرا، لأنه كذلك يسهو ويمحو ويدق بنعومة على الكلمات، كما لو أن لها أبوابا.

يتمسك شربل داغر في كتابه الجديد، بهوائه المغاير، بقدرته على التمرد على نفسه أولا، ثم على ما كان جاهزا من قوالب تطوق اللغة والشعر، لتجعله حبيس أبنية إسمنتية تحول دون أن يتسرب هواء التغيير والتجدد بداخلها.

في قصائد داغر نلتقي بقصص وحالات نثرية تجلسنا من خلالها فيروز، وتبقينا أم كلثوم واقفين في حفلتها، فيما نحاول استدراك ما فاتنا من أغنيات نجاة الصغيرة، وإذ نمضي مع بول كلي في القيروان، فإننا كذلك نمشي خلف خطى كاندينسكي، ونحب في زمن الفيس، ونتحدث بألسنة "النت" المبتورة.

ونذكر أن "مجموعة عشها مثل أبد لا ينقضي"، صدرت في 144 صفحة من القطع المتوسط، ضمن سلسلة "براءات" التي تصدرها منشورات المتوسط بإيطاليا، منتصرة فيها للشعر والقصة القصيرة والنصوص، احتفاء بهذه الأجناس الأدبية.